

تعقيب على تعقيب

د. محمد بن سعد بن حسين

نُفي مجلة الأدب الإسلامي / المجلد الأول / العدد الرابع / ربيع الثاني ١٤١٥ هـ، ص ١٠٧ - ورد تعقيب للدكتور عماد الدين خليل على حديث لي عن كتاب (الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق) للدكتور صابر عبدالدايم وكان ذلك الحديث في العدد الأول من (مجلة الأدب الإسلامي).

وفي تعقيب الأخ الفاضل عماد الدين على حديثي ذلك جاء قوله: «ولست أدري إن كان الأخ الدكتور محمد بن سعد قد قرأ بحثي جيداً قبل أن يناقش «دعواي في مقام آخر».

وأطمئن الأخ الفاضل أنني لم أقرأ كتابه (محاولات جديدة في النقد الإسلامي) وحسب، بل إنني قرأت كل ما وصلني من مؤلفاته، وخصصت مناقشة كتابه (مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي) بفصل كامل في كتابي (الأدب الإسلامي بين الواقع والتنظير) وهو الكتاب الذي وردت فيه مناقشتي بعضاً من آرائه في كتاب (محاولات جديدة في النقد الإسلامي) وسأورد نص ما ذكرته هناك وسيجد فيه أنني أثبتت على موقفه من قول الأستاذ خلف الله الذي أشار إليه في تعقيبه. لقد قلت:

بعد إشارة الدكتور إلى التغير الهائل الذي طرأ على الأمة العربية بظهور الإسلام فيها وتفاعلها تفاعلاً ظاهراً مع هذا الجديد في حياتها تساءل الدكتور عماد الدين خليل عن عدم تفاعلهم أدبياً مع ذلك الجديد بقوله: «فلماذا لم تنعكس هذه الرؤية الكبيرة الشاملة في معطيات المسلمين التعبيرية عبر

أجيالهم الأولى، وهم ما هم عليه من إيمان جاد، والتزام عميق، وتمثل لهذه الرؤية ما بلغت الأجيال التالية عشر معشارها؟» ثم ذكر أنه فتش في أشعار شعراء المصطفى ﷺ وكتب الأدب والنقد التي سرد منها جملة، فلم يجد إلا ومضات كالبرق الخاطف تومض هنا وهناك ولا شيء وراء هذه اللمعات سوى ركام من الشعر يمثل امتداداً لعصور الجاهلية في (تكنيكه) وكثير من مضامينه... فإذا ما حاول تمثل المضامين الجديدة وما تفرضه من صيغ (تكنيكية) مختلفة لم يطق مجاوزة [القديم]، وبقي متشبهاً به يسير بمحاذاة ربما خوفاً من السقوط في المجهول... وربما عدم تمكن من [تنفيذ] الرؤية الجديدة في مجرى العطاء الشعري.. وربما.. من يدري؟».

ثم حكم بأن الفن «الذي يتوجب أن تنعكس عليه مجريات التغير الكبير لم يتحقق». وأعاد سبب ذلك إلى كون الجيل الأول من المسلمين لم يقوَ على التفاعل الأدبي الكافي، وكذلك الجيل الذي أتى بعدهم كان يسير - كما يقول - بمحاذاة القديم دون أن يجرؤ على المحاولة الجديدة، وأهم أسباب ذلك فيما يرى هو اتكاء العرب على قول عمر بن

(*) أديب وناقد وشاعر سعودي، وهو استاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، من مؤلفاته: المعارضات في الشعر العربي، حافظ إبراهيم ونظرات في شعره، الالتزام الإسلامي في الأدب، وغيرها، وله من الشعر ديوان: أصداء وأنداء.

العقلية العربية شاعرة، لا تقف عند القديم بل تتجدد لديها الرؤى

تطلبه هذه اللحظات من إبداع».

ثم يتراجع نوع تراجع فيقول: «إنه إذا تمنعت قلوب بعض الشعراء المسلمين على [التجربة] ولم تفتح لها الأبواب لكي تنفذ إلى الأعماق... لسبب أو آخر.. فإنّ عدداً آخر تعاملوا معها حتى آخر قطرة من دمهم ووجدانهم... وكانوا يتحركون بحسهم الجديد في قلب المعركة ويسهمون في تحقيق العالم الجديد الذي رجوه وتمنوه.. ويستشهدون.. لكن ذلك لم يصنع [الشعر] الذي يوازي بإيقاعه إيقاع الحركة الكبيرة، ويعبر عنها، ويكون لحجمها... عملاقاً كما هي عملاقة».

وهو ينفي أن يكون ضعف الشعر آتياً من تأثير الإسلام فكراً أو موقفاً وهذا صحيح، وموقف الدكتور عماد الدين من هذا القول وما أشبهه موقف جيد جداً سبق له مثله في صدر هذا الفصل من كتابه هذا، وذلك حين رد قول الأستاذ خلف الله بنفي قوة التفاعل بالإسلام عند أوائل المسلمين ولكنه -أي عماد الدين- يعود فيقول: «هل إن المعضلة تكمن في عدم وجود عدد من الشعراء الكبار في صف الحركة الإسلامية، قديرين على تمثل مطالب الحركة التصويرية والتعبير عنها بالقوة والعمق والامتداد الموازي للحركة والآفاق؟ كلها!! لأن عدداً من شعراء الجاهلية الكبار، لما انتقلوا إلى الإسلام عجزوا هم الآخرون عن أداء المهمة المرتجاة وتنفيذ شعر إسلامي متميز أصيل... ومع ذلك فلا بد أن نبقي احتمالاً كهذا في الحسبان، أو على هامش الحسبان، إذا ما توخينا الإحاطة بكل عوامل المعضلة صغیرها وكبیرها... فلو أن عدداً من الشعراء الكبار من حجم زهير بن أبي سلمى، وامرئ القيس، والنابغة الذبياني، وعنترة العبيسي، وطرفة بن

الخطاب (رضي الله عنه): «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»، ويعقب ابن سلام الجمحي «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته».

وهذا يعني وصف العقلية العربية بأنها عقلية جامدة وغير قادرة على التفكير، بل حسبها من ذلك قول أحد قادتها تقف عنده جامدة لا تعدل ولا تبدل فيما هو قابل للتعديل والتبديل!!

إن العقلية العربية عقلية نامية متطورة تنطلق في آفاق التجديد بلا حدود. أما في أمور الدين فإنها تقف عند ما أتى به سيد المرسلين، فوصف أدبها بالجمود مما غلا فيه بعض إخواننا من النقاد، ولست أدري سبباً وجيهاً لهذا الغلو إلا أن يكون واحداً من أمرين:

أحدهما: أن يكون الدافع إليه الحماسة للدعوة التجديدية التي يريد بعضهم أن يضفي عليها صبغة الجدة. والثاني: أن يكون الجهل بما خلف أدباء العرب أو فهمه فهماً سيئاً.

وبعد إيراد قول ابن خلدون يرد على أقوال العلماء مؤكداً فكرة عدم قدرة المسلمين على التفاعل الأدبي الكافي فيقول: «لكننا تاريخياً - لا نجد فترة زمنية كف فيها الشعر عن العطاء، عبر عصر الرسالة منذ لحظاتها الأولى وحتى إلحاق الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - بالرفيق الأعلى، لكي نقول: إن المسلمين انشغلوا بأمر الدين الجديد فكفوا عن قول الشعر.. والأحداث الكبيرة لا تلهم الشعراء وتشغلهم ولكنها تشدهم وتبههم فيزدادون تدفقاً.. ثم إن المسألة ليست مسألة توقف زمني عن العطاء الشعري، ولكنها معضلة شعري يعاني من الهزال والهبوط الفني، ظل يقال، عبر لحظات الصراع المحتشدة، وعبر ساعات السلم الهنيئة - على السواء - دون أن يكون إلا نادراً بمستوى ما

الإحاطة بالتراث الفكري ضرورة للانطلاق إلى رحابة المطاء والتجديد

العبد... إلى آخره.... كانوا يعملون في قلب الحركة الإسلامية لكننا -ربما عثرنا على قدرة أكثر -كماً ونوعاً- على الاقتراب من رؤى الإسلام وآفاقه وتصوراته الشاملة... لكن المسافة ستظل -يقيناً- واسعة، والهوة عميقة.. إذ ليس بمقدور هؤلاء جميعاً أن يقفزوا في لحظة قصيرة في حساب الزمن الإبداعي ذي التقاليد طويلة الأمد، لإبداع تقليد شعري جديد».

وبعد جولة اشتملت على طرح أسئلة كثيرة، انتهى إلى أن النقص آت من قبل الزمن، وأنه لو فرض -جداً- أن الإسلام تنزل في العصر العباسي أو الأندلسي لوجد من الشعراء تفاعلاً واستجابة هائلة جداً، يقول: «أغلب الظن أن (الخلل) يتوجب البحث عنه في صميم العملية الشعرية نفسها، وفي علاقتها الجدلية بالزمن من حيث إنها عملية «دينامية» متطورة يزيد بها مرور الزمن نموًا وازدهاراً بما يضيفه إليها من خبرات وتجارب على مستوى الأشكال والمضامين والاستشراف النقدي جميعاً.

ولو افترضنا أن الإسلام تنزل -على سبيل المثال- في إحدى العصور العباسية في العراق أو الإسلامية في الأندلس، لعثرنا -يقيناً- على حشد من الشعراء القديرين على تمثل التجربة والتعبير عنها بمعطيات شعرية أكثر عمقاً وحيوية ونضجاً على مستوى الشكل والمضمون.. لأن العملية الشعرية كانت يومها قد بلغت، بحكم التطور الدينامي، وتراكم الخبرات الفنية والثقافية، حدّاً طيباً من العمق والحيوية والنضج».

ولا يمكن أن يقول الدكتور عماد : إن الإسلام غير متجدد أو إنه غير قابل للتفاعل معه في كل زمان. وما دام هذا صحيحاً فبم يفسر نفي بعض الباحثين تفاعل العباسيين والأندلسيين، ومن أتى بعدهم مع الفكر الإسلامي؟

ثم ما الذي جد من حيث الوعي الشعري، والقدرة على التفاعل عند العباسيين والأندلسيين، فميزهم عن الأمويين وشعراء صدر الإسلام؟ ثم ما الخصوصية التي تميز بها العراق والأندلس عن بقية أقطار الدولة الإسلامية كالشام ومصر وجزيرة العرب؟

لا شيء من ذلك إلا ما يتعلق بالجانب الجمالي إلى حد ما، ولبينة اللفظ ورقته، ولبينة الخلق أيضاً، وما إلى ذلك مما لا صلة له بنسبة ارتفاع التفاعل أو انخفاضه! إننا ننكر على الحدائين وغلاة التجديد تنكهرهم للقديم ورميه بما ليس فيه، فإذا أخذنا بمثل قول الدكتور عماد الدين فإننا حينئذ نناقض أنفسنا، نعيب الآخرين لتنكهرهم للتراث، ثم نعود إلى هدمه من حيث لا ندري.

ويلح الدكتور عماد على هذه القضية حتى ينتهي فيها إلى أن العصر الحديث أكثر ملاءمة لتفاعل الفن -ومنه الشعر- بالإسلام فيقول:

«أما وقد تنزل في بيئة لم يكن الشعر فيها على أصالته وقوة إمكاناته البنائية - بقادر على تجاوز القيود التي كان قد اختارها لعدة قرون... قيود المعاني والأشكال... فإن من غير المعقول أن نطالب الشعراء يومها بتحقيق المعجزة بين يوم وليلة.. وأنه لا بد من فترة زمنية تحل فيها المعضلة، وتقود العملية «الدينامية» لتطور الفن الشعري إلى تمكين الشعر من التعبير عن المطالب التصورية والحركية للدين الجديد، والتشوف إلى آفاقه التي ما لها من حدود.

إن العملية الشعرية في القرن العشرين، وما واكبها من معطيات ونظريات نقدية وفلسفات جمالية، هي غيرها في

العملية النقدية المعاصرة غدت أكثر عمقاً وفهماً للإبداع مما كانت عليه من قبل

كتب بكثير، فلنقف عند هذا الحد مما يتصل بالعملية الإبداعية.

وبعد إيراد الأخ الفاضل بعضاً من قوله قال: «والحق أنني لا أستطيع أن أضيف كلمة واحدة إلى ما قلته هناك؛ لأنه واضح الدلالة لا يحتاج إلى تأويل، وهو يكفي بحذره من الوقوع في مظنة التعميم - وهي خطيئة علمية كما هو معروف - للتدليل على أنني لم أقل بعدم تفاعل شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي شعورياً مع الدين الجديد هكذا على إطلاقها».

فأما أنه لا يستطيع إضافة شيء إلى ما ذكره فذلك من شأنه، وأما أن فيه ما لا يصح صدوره من مثله فإن نصوص كتابه السالفة تثبت ذلك. أنا لم آت بجديد من عندي ولم أقول على أحد وما أحسبني يمكن أن أفعل شيئاً من هذا.

والأعجب من ذلك أن أchan - ساعه الله - يقول: «ثم إن الدكتور محمد بن سعد يطلق أحكاماً أخرى على عواهنها دونما تثبت ولا تمحيص، وهو بصدد الحديث عن التراث الأدبي للأجداد من مثل أن سيد قطب - رحمه الله - قد يخونه التعبير، أو أنه قد ينطلق في أقواله من فهم غير دقيق رغم أن هذا لا ينقص من شأنه ولا يسيء إلا فكره القويم». وقول سيد قطب الذي بنيت عليه قولي موجود في كتابه ((خصائص التصور الإسلامي)) وهو مما اشتمل عليه كتاب د/ صابر عبدالدايم ((الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق)).

وبما ادعى فيه خطئي قوله: «ومن مثل إن جلال الدين الرومي وأمثاله هم من متطرفي الصوفية إلى آخره» ثم قوله:

القرن العاشر... إنها غدت ولا ريب أكثر عمقاً واستشرافاً ووعياً بطبيعة العملية عما كانت عليه يومها... قد يسيء شاعر أو اثنان أو عشرة أو عشرون استخدام هذه الإمكانيات الكبيرة لدينامية العملية الشعرية.. وقد يكون شاعر أو اثنان أو عشرة أو عشرون، في القرن العاشر، أكثر قدرة على الإبداع من رفاقهم بعد عشرة قرون... إلا أن القاعدة تبقى هي القاعدة.. أن العملية الشعرية في القرن العشرين، شكلاً ومضموناً، وبطانتها النقدية والفلسفية، غدت أكثر نضجاً بكثير مما كانت عليه في القرن العاشر.

وهذا يتيح للشاعر الحديث، إذا ما شاءت له أسباب التمكن من ناصية الإبداع الشعري، أن يكون في القرن العشرين أكثر قدرة (تعبيرية) على تغطية مطالب الرؤية الإسلامية من سلفه في القرن العاشر، ويتيح للشاعر في عصر عباسي أو أندلسي أن يكون أقدر على التنفيذ الملتزم من سلفه في عصر نبوي أو راشدي أو أموي... وشتان - على سبيل المثل - بين شاعر كجلال الدين الرومي، وآخر كحسان بن ثابت!

كنا نضحك من قول أحد شيوخنا: «إن المتنبي لا يصل إلى ساقى قهوة عند شوقي»، وكنا نضحك أيضاً من ذلك الذي قال: إن «د. طه حسين فاق الجاحظ وأمثاله بلاغة وأسلوباً!». واليوم نقرأ لأحد الفضلاء وهو الدكتور عماد الدين خليل تفضيل شعراء وأدباء هذا العصر على كل من سبقهم أو على الأقل القول بأنهم مهيوون للعملية الأدبية أكثر من السابقين. ومجرد المفاضلة بين جلال الدين الرومي الصوفي المتطرف وبين حسان بن ثابت (رضي الله عنه). مجرد المفاضلة بينهما فكر مرفوض يذكرني رفض د. زكي مبارك عد شعر حسان بن ثابت (رضي الله عنه) من باب المدائح لعدم اشتماله على نزعة صوفية!

والحق أقول: إنني لو وقفت عند كل مبالغة فيما كتبه أخونا الفاضل لاضطررتي ذلك إلى إطالة تفضي إلى أطول مما

العملية النقدية المعاصرة غدت أكثر عمقاً وفهماً للإبداع عما كانت عليه من قبل

«فجلال الدين الرومي لم يكن من متطرفي الصوفية، وبرجوع متأن لمثنوياته يتبين لكل ذي عينين نبض التوحيد المطلق في شعره واستلهم معطيات القرآن الكريم والسنة الشريفة، فضلاً عن الموروث الإيماني الأصيل المتمثل في جهود الأنبياء جميعاً عليهم أفضل الصلاة والسلام».

ولا أريد إطالة الوقفة هنا إذ يكفي في ذلك إيراد قول جلال الدين الرومي الذي ترجمه من المثنوي الشيخ/ الصاوي شعلان في ديوان «وحي الإيمان» ص ٣٠١.

قال لي المحبوب لما زرتته

من يبابي؟ قلت: بالباب أنا

قال لي: أنكرت توحيد الهوى

عندما فرقت فيه بيننا

ومضى عام، فلما جئته

أطرق الباب عليه مؤمناً

قال لي: من أنت؟ قلت انظر فما

ثم إلا أنت بالباب هنا

قال لي: أدركت توحيد الهوى

وعرفت الحب فادخل يا أنا

فهل هذا القول دليل إيمان؟ وهل هو ما عليه الرسل

والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)؟

لعل الأخ الفاضل يقدم لنا جواباً في ذلك ينفي هذا

القول وأمثاله عن جلال الدين الرومي، وما أحسبه واجداً إلى

ذلك سيلاً، ولو استطاع -ولن يستطيع- فإن

الشيخ/ الصاوي شعلان يصبح من الوضاعين وما هو بذلك.

إن الحق أحق أن يتبع، وليس عيباً أن يرجع الباحث عن

رأي سها فيه عن وجه الحق أو زل قلمه فالرجوع إلى الحق

فضيلة. عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:

«كل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوابون» رواه الترمذي.

قواعد النشر في المجلة

- ١ - لا تنشر المجلة أي موضوع سبق نشره.
- ٢ - موضوعات المجلة تنشر في حلقة واحدة ولا توزع على عدددين.
- ٣ - يرجى كتابة الموضوع على الآلة الكاتبة أو بخط واضح، مع ضبط الشعر والشواهد.
- ٤ - يرجى ذكر الاسم ثلاثياً مع العنوان المفصل ليتمكن وصول المكافأة الرمزية إلى الكاتب.
- ٥ - ترسل نبذة عن الكاتب في حدود سطرين.
- ٦ - يرجى توثيق البحوث توثيقاً علمياً كاملاً.
- ٧ - الموضوع الذي لا ينشر لا يعاد إلى صاحبه.